رجوع ابن إدريس إلى ذوي التخصص في ضبط المفاهيم المعرفية

السيد إياد حمزة عبد الشريفي
مركز العلامة الحلي

الملخص

من سمات أهل العلم والعلماء اتباع أهل التخصص والاختصاص، والرجوع اليهم والأخذ عنهم فيما هم فيه أعرف وأدرى، وهذا هو المنهج الذي انتدب اليه المولى في كتابه الكريم، فقال جلَّ وعلا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وتأسيساً على هذا نجد أن الشيخ ابن ادريس(طاب ثراه) قد أكد هذا المعنى بقوله: (أهل كلّ فن أعلم بفنّهم من غيرهم وأبصر وأضبط)، وقد رجع الى ذوي الاختصاص في جملة من الموارد خلال عملية استنباطه للأحكام الشرعية التي لاحظناها في كتابه (السرائر)، وقد حاولت إحصاء المهم من تلك الموارد، وجعلها في محاور عدة، تضمنت رجوعه إلى أهل اللغة، والتاريخ، والكلام، والعرف، وغير ذلك.

Resorting of Ibn Idrees to Specialists in Adjusting Epistemic Conceptions

By Sayyid Iyad Hamza Abid Ash-Shareefi
Centre of Al-Allama Al-Hilli

One of the characteristics of scholars is to follow specialists and experts, resorting to them and taking from them in what they are more knowledgeable about. In fact, this is the Divine accredited approach we are ordered to adopt, as it is stated in His sacred Book when He says (...so ask the followers of the Reminder if you don't know). By virtue of this, we find that Sheikh Ibn Idrees(May Allah rest him in peace) has emphasized this meaning by saying (People of every art are more knowledgeable, more informed and more accurate about their profession than other people). He, therefore, consulted specialists in many places throughout his process of deducting juristic laws which we find in his book Assara'ir(Inward Thoughts). I have tried to count the most important of these places, and arrange them into many entries including his resorting to philologists, historians, scholastic theologians, conventionalists and so on.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد.

فإنَّ من سمات أهل العلم والعلماء إتباع أهل التخصص والاختصاص، والرجوع إليهم والأخذ عنهم فيما هم فيه أعرف وأدرى، وهذا هو المنهج الذي انتدب إليه المولى في كتابه الكريم فقال جلّ وعلا: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وإن كان المصداق الأوضح لهذا المفهوم القرآني هم الأنبياء والأوصياء، لكنَّه لا يمنع أن ينطبق على غيرهم، فهو عنوان محتمل شأنه شأن البياض الذى ينطبق على شديد البياض وضعيفه. ولقد دأب العلماء وأهل كل فن أن يرجعوا الى أهل الفنون الأخرى؛ لجعل بحثهم العلمي بحثًا قائمًا على أساس الدليل في نقل الحقيقة وإثباتها، وإن المتتبع لبحوث الشيخ ابن إدريس (أعلى اللّه مقامه) يجد أنَّ مِنَ الخَصائص التي يتميَّزُ بها بحثه رجوعه في كلِّ فنٍّ إلى ذويه والمتخصصين فيه، فهو يرى ويصرِّح بأَنَّ (أهل كلّ فن أعلم بفنّهم من غيرهم وأبصر وأضبط)[2]، وفي ذلك دلالة على موضوعية الشيخ ابن إدريس، وأنَّهُ يتبع المنهجَ العلميَّ المبنيَّ في أحد مفاصله على الرجوع إلى ذوي التخصص وعدم القول بغير علمٍ، فإنها من أمارات الجهل والجاهلين، ولو تتبعنا كتابه (السرائر) لوجدناه يرجع الى ذوي الاختصاص في مواردَ شتى ومحاورَ عدة حاولتُ أنْ أُحصيها فوجدتها كثيرَةً، فأخذتُ منها بعضَ الموارِدِ وجعلتها في ستة محاور هي:

المحور الأول: رجوعه إلى أهل اللغة.

المحور الثاني: رجوعه إلى علماء التاريخ.

المحور الثالث: رجوعه إلى العرفِ.

المحور الرابع: رجوعه إلى المتكلمين.

المحور الخامس: رجوعه إلى أهل الحساب.

المحور السادس: تعويله على آثار من سبق.

المحور الأول: رجوعه إلى أهل اللغة

تعد اللغة من المقدمات المهمة والأساسية لدراسة علم الفقه بخاصة وعلوم الشريعة بعامة، لما في ذلك من أثر بالغ في فهم مصادر التشريع من قرآن وسُنَّة، فلا يُمكنُ فهمهما والإحاطة بمرادهما لمن جهل علوم اللغة ولاسيما علم النحو ومعاني المفردات، ومما ذكره الشيخ ابن إدريس بهذا الصدد ما (رُوي أنّ رقبة بن مصقلة[٣] قال لأبي حنيفة الفقيه: ما تقول في رجل ضرب طلته بمرقاق فقتلها، فقال أبو حنيفة: ما أدري ما تقول، فقال له: أ فتفتي ـ ويحك ـ في دين الله وأنت لا تعرف لغة نبيه صلى الله عليه وآله الطلة الحماة، والمرقاق الّذي يسمى الشوبك)[٤]. وهذا ما يكشف لنا أهمية معرفة اللغة العربية ومعانيها قبل الدخول في مرحلة الإفتاء واستنباط الفتيا.

ثم نقل الشيخ ابن إدريس جملة من الأقوال تحكي مثل هذا المعنى، نذكرُ منها قول أبي داود السّنجي[٥] قال: (سمعت الأصمعي[٦] يقول: إنّ أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أنْ يدخلَ في جملة قول النبي صلى الله عليه وآله: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»؛ لأنّه صلى الله عليه وآله لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه)[٧].

ويتجلى اعتماد الشيخ ابن إدريس قدس سره الى أهل اللغة في جملة موارد منها:

١ـ رجوعه إلى ابن العصار البغدادي[٨]

كان الشيخ ابن إدريس الحليّ

يُعوِّلُ كثيرًا على أقوال ابن العصار البغدادي في كثير من الموارد، ويستشهد بكلامه ويكاتبه من أجل أن يستوضح منه معنى بعض المفردات اللغوية ويثبت معناها مُستندًا في ذلك على قولِ هذا العالم اللغوي الثبت، دون النظر والالتفات الى شيء آخر كالاختلاف في المذهب أو الرأي أو ما شاكل، بل كان ذلك منه نوعاً من التقارب والوصال، ومحاولة ردم الهوة وسد الثغرة بين أطياف المسلمين، ونزع فتيل الشحناء والبغضاء، وأيّ تقاربٍ أوضح وأجلى مِن تقارُبِ البحث العلمي كما كان ذلك منه سَعياً خلفَ المعلومةِ والمعرفة، فكما قال صادق آل البيت عليهم السلام: (الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجد أحدكم ضالته فليأخذها)[٩]، ومن تلك الموارد التي رَجَعَ فيها الشيخُ ابن إدريس الى ابنِ العصار ما يأتي:

أ) في تصغير كلمة (الجدي) عندما أراد بيان كيفية تحديد جهة القبلة لمن أُشكلت عليه جهتها ليلًا، إذ قال رحمه الله: (ومن أُشكلت عليه جهة القبلة ليلًا يجعلْ الكوكب المعروف بالجدي بفتح الجيم مكبّر غير مصغر؛ لأنَّ بعَض مَن عاصرناه من مشايخنا كان يصغّره وهو خطأ، ولقد سألت ابن العصار إمام اللغة ببغداد عن تصغيره فأنكر ذلك، وقال: ما يصغّر، واستشهد بالشعر على تكبيره ببيت لم أحفظه)[١٠].

ب) في كيفية كتابة الحديبية، وهي مسألة تدل على شدةِ تدقيقه وتحقيقه فيما يخص الأشياء المتعلقة بالاستنباط الفقهي، ولا يمر على الأشياء مرور الكرام، بل يتوقف في أدق التفاصيل طلبًا للحق والحقيقة العلمية حيث استشهد بفعل رسول الله صلى الله عليه وآله عندما صُدَّ عن دخول مكة وكان مُحرمًا لحج القِرانِ سائقًا هَديًا، فقالَ رحمه الله: (وأمّا المصدود فهو الّذي يصدّه العدو عن الدخول إلى

مكــة ـ أو الوقوف بالموقفين ـ فإذا كان ذلــك ذبح هديه فــي المكان الّذي صدّ فيه سواء كان في الحرم أو خارجــه؛ لأنَّ الرســولَ صلى الله عليه وآله صــدَّهُ المشــركون بالحديبية ـ والحديبية اســم بئر، وهو خارج الحرم، يقال: الحديبيــة بالتخفيــف والتثقيــل، وســألت ابن العصــار الفوهي فقال: أهــل اللغــة يقولونهــا بالتخفيــف، وأصحــاب الحديــث يقولونهــا بالتشــديد، وخطّه عنــدي بذلك، وكان إمام اللغة ببغداد)[11].

فكــم كان دقيقًا عندما يقف في مثل هذه المسألة الجزئية متحرّيًا الحقيقة الى درجــة أنه يكاتب ابن العصار لذلك؟ وكم كان متواضعًا منصفًا عندما يذكر تلك المكاتبة، ولا يغفــل عــن الحقِّ المعنــوي لذلك الرجل النحويّ.

٢ـ رجوعه الى مصادر اللغة الأخرى

لم يكتفِ الشيخُ ابن إدريس قدس سره بابن العصار في مراجعته لأهل اللغة بل استعان بجملة من العلماء في أغلب الاحيان لم يسمهم وهنا نذكر جملة من الموارد بهذا الخصوص منها:

أ) فــي معنــى الحَــبَن الــوارد فــي القول المــروي في فقــه الإمام الرضــا عليه السلام: «وإذا أردت أن تلبــس الســراويل، فلا تلبســه وأنت قائم، والبــس وأنــت جالس، فإنــه يورث الحَبَن والماء الأصفر[12]، ويورث الغم والهم، وقل: بســم اللّه، اللهم استر عورتــي، ولا تهتكني في عرصات القيامــة، وأعف فرجــي، ولا تخلع عني زينة الإيمان»[13].

وهنا فســر الشــيخ ابــن إدريس الحبن بأنه ورم البطن رادًّا على الشيخ الصــدوق الذي فســره بالماء الأصفر في رسالته لولده، إذ جاء في كتاب الســرائر ما نصــه: (وروي كراهية لبــس الســراويل قائمًا؛ لأنّــه يُورث الحَبَن بالحاء غيــر المعجمة المفتوحة والباء المنقطة من تحتها نقطة واحدة المفتُوحة والنّون، وهو السّقي وهو ورم

البطن. وقال ابن بابويه في رسالته: هو الماء الأصفر، والأوّل قول أهل اللغة، وإليهم المرجع فيه)[١٤].

ب) رجوعه في معنى الاستخارة

ومن طريف إفاداته اللغوية معنى الاستخارة الذي ذكر أنه بمعنى الدعاء قائلًا:

(وأيضًا فالاستخارة في كلام العرب الدعاء، وهو من استخارة الوحش، وذلك أنْ يأخذَ القانصُ ولدَ الظبية فيفرك أذنه فيبغم، فإذا سمعت أمه بُغامه لم تملك أن تأتيه فترمي بنفسها عليه فيأخذها القانص حينئذٍ، قال حميد بن ثور الهلالي، وذكر ظبية وولدها ودعاه لها لما أخذه القانص فقال:

رأت مستخيرًا فاستزال فؤادها

بمحنية تبدو لها وتغيب)[١٥]

ت) ومنه ما ذكره في البريد ومقداره

أفاد الشيخ ابن إدريس من معنى البريد في مسألة القصر في الصلاة فقد جاء في سرائره: (وحدّ السفر الّذي يجب معه التقصير بريدان، والبريد أربعة فراسخ...)[١٦].

ثم أوضح معنى البريد وأصل التسمية بهذا الاسم فقال: (وأصل البريد أنّهم كانوا ينصبون في الطرق أعلامًا، فإذا بلغ بعضها راكب البريد نزل عنه وسلّم ما معه من الكتب إلى غيره، فكأنَّ ما به من الحرِّ والتعب يبرد في ذلك، أو ينام فيه الراكب، والنّوم يُسمَّى بردًا، فُسُمِّيَ ما بين الموضعين بريدًا، وإنّما الأصل الموضع الّذي ينزل فيه الراكب ثمّ قيل للدابة بريد، وإنّما كانت البُرد للملوك، ثمّ قيل للسير بريد، وقال مزرد بن ضرار يمدح عرابة الأوسي:

فدتك عراب اليوم نفسي وأسرتي

وناقتي الناجي إليك بريدها)[١٧]

وهكذا كان، فلا يمر بمسألة أو مفردة إلّا ودقَّقَ في أساسها وأصَّلَ معناها، فتراه ينقلُ

قارئَ كتابه من فنٍّ إلى فنٍّ آخر، ومن روضة غنَّاء إلى أُخرى دون كلفة في ذلك، فيحيط بالمسألة الفقهية من كل جوانبها، ويسلط الضوء على كل أبعادها اللغوية والعلمية الأخرى، فيكون كتابُهُ نِعمَ الأنيسِ، وأسلوبُهُ سهلًا مشوقًا ممتعًا عميقًا، يدفع عن القارئ السآمة والملل، ويثري فكره، ويزيده انشدادًا لمتابعة القراءة وطلبِ الاستزادة.

ث) رجوعه في معنى العنبر

ومن طريف ما وقف عنده كذلك بيانه لمعنى العنبر عند بحثه لما يجب فيه الخمس مما يؤخذ من البحر حيث نقل معناه وأبان بعض خصائصه ناقلاً ذلك عن الشيخ الطوسي قدس سره عن الجاحظ فقال رحمه الله: (إنه نبات من البحر، وقال الجاحظ في كتاب الحيوان: العنبر يقذفه البحر إلى جزيرة، فلا يأكل منه شيءٍ إلَّا ماتَ، ولا ينقره طائر بمنقاره إلَّا نصل فيه منقاره، وإذا وضع رجليه عليه، نصلت أظفاره، فإن كان قد أكل منه، قتله ما أكل، وإن لم يكن أكل منه، فإنه ميت لا محالة، لأنه إذا بقي بغير منقار، لم يكن للطائر شيء يأكل به، والعطارون يخبروننا بأنهم ربما وجدوا المنقار والظفر)[١٨].

وهذا الذي نقله الشيخ ابن إدريس يدخل في باب خصائص الكائنات الحية التي ليست من مختصات الفقيه، لكنه يزيل البهمة وينير الظلمة عن كل معلومة يمر بها كاشفًا الستار عن بعض ما خفي على القارئ، فتراه في كل مرة يتحفه بجوهرة جديدة وهدية مجزية، ولقد حاولت تتبع مدى صحة المعلومة التي نقلها عن الجاحظ فوجدتها صحيحة الى حد ما ومطابقة لبعض ما وصلت اليه اكتشافات العلم الحديث حول مادة العنبر وكيفية تولدها؛ إذ جاء في شبكة المعلومات الألكترونية وفي الموقع المسمى بويكيبيديا

العربية ما نصه: (يُمكنُ للعنبر أن يتولَّد إن علق منقار الحبَّار الحاد في معيّ الحوت، وهي حالةٌ مُماثلة لتولّد اللؤلؤ داخل أصداف المحَّار، إذ يؤدي تهيّج المعيّ بفضل المنقار إلى حث جسد الحوت على إفراز تلك المادَّة شبه الشحميَّة..)[١٩]. فمادة العنبر من إنتاج معدة حوت العنبر يلفظها بعد أنْ تفرزها معدته كإجراء وقائي ضد منقار حيوان الحبار الذي يشكل أهم مكونات غذاء حوت العنبر، فضلًا عن أنَّ بعض النباتات والطحالب البحرية التي يلفظ الحوت قسمًا منها ويقيئها خارجًا، فيتوهم مَن وَجَدَهَا آنذاك أنها منقارُ طيرٍ خلع بتأثير مادة العنبر ظانًا أَنَّهَا نباتٌ بحريٌّ.

ج) بيانه معنى عيد الفصح

وذلك عندما قال بعدم جواز ضرب موعد تسليم المبيع الى مدة غير محددة، ومنها عيد الفصح، ثم أبان معناه راجعًا إلى كتاب (الاشتقاق) للمبرد الذي ينقل عن التَّوَّزِيِّ[٢٠]؛ إذ قالَ الشيخُ ابن إدريس رحمه الله: (فصح النصارى: بالفاء والصاد غير المعجمة، والحاء غير المعجمة مكسورة الفاء مسكّن الصاد، وهذا العيد عيد النصارى، إذا أكلوا اللحم بعد صومهم وأفطروا، وهذا العيد بعد عيد الشعانين بثلاثة أيام. قال المبرد في كتاب الاشتقاق: سمعت التوزي سئل عن فصح النصارى، فقال قائل: إنّما أخذ من قولهم أفصح اللّبن إذا ذهبت رغوته وخلص، فإنّما معناه أنّه قد ذهب عناؤهم وصومهم، وحصلوا على حقيقة ما كانوا عليه فقال: هو هذا، والفصح كلام عربي من ذلك رجل فصيح، وقد أفصح إذا بيَّنَ، وأفصح الصبح إذا تبيّن)[٢١].

٣. الإفادة من أساليب اللغة

يتجلى هذا عند تفسيره لمعنى (تَرِبَتْ يداك) الوارد في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليك بذات الدين تربت يداك»[٢٢] عند ذكره جملة

من الأحاديث التي تحثُّ على الزواج بذات الدين، إذْ قالَ: (وهذا دعاء بمعنى الدعاء له والمدح على فعله إن فعل، على مذهب كلام العرب فإنّهم إذا أرادوا مدح المجوّد في الرمي، قالوا: قد قطعت يداه ما أرماه)[٢٣]

وذكرَ ابنُ سلَّام[٢٤] في بيان هذا الحديث (أن أصله أنه يقال للرجل إذا قلَّ ماله: قد ترب أي افتقر حتى لصق بالتراب، وقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[٢٥] فيرون واللّه أعلم أن النبي صلى الله عليه وآله لم يتعمد الدعاء عليه بالفقر، ولكن هذه كلمة جارية على ألسنة العرب يقولونها وهم لا يريدون وقوع الأمر، وهذا كقوله لصفية ابنة حيي، حين قيل له يوم النفر: إنها حائض، فقال: عقرا حلقا ما أراها إلا حابستنا)[٢٦].

المحور الثاني: رجوعه إلى علماء التاريخ

لقد كان للشيخ ابن إدريس قدس سره موارد متعددة رجع فيها الى المؤرخين وأهل السير الذين سبقوا عصره تثبيتًا منه للحقائق التاريخية، ومن ذلك ما يأتي:

١. في أصل تسمية القادسية

فهو رحمه الله حينما وصل به المقام والحديث في باب الزكاة إلى الأراضي المفتوحة عنوة ذكر أرض القادسية، وأورد خبرًا عَن بعضِ ولاةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام قال فيه: استعملني عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام على بانقيا وسواد من سواد الكوفة، فعلق الشيخُ ابن إدريس هنا قائلاً: (بانقيا هي القادسية، وما والاها، وأعمالها وإنما سميت القادسية، بدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لأنه قال: كوني مقدسة للقادسية، أي مطهرة من التقديس، وإنما سميت القادسية بانقيا؛ لأن إبراهيم عليه السلام، اشتراها بمائة نعجة من غنمه، لأن «با» مائة و «نقيا» شاة، بلغة النبط، وقد ذكر بانقيا أعشى قيس في شعره، وفسره علماء اللغة، وواضعوا كتب الكوفة، من أهل السيرة، بما ذكرناه)[٢٧].

٢ . في ترجمة علي الأكبر عليه السلام

عند ذكره لاستحباب زيارة الإمام الحسين عليه السلام ذكر استحباب زيارة ولده علي الأكبر عليه السلام وبدأ في كشف الريب عن ترجمة شخصيته المباركة، فذكر ما ذهب إليه الشيخ المفيد في ذلك ثم رده مستفيدا من كلام أهل السير في المقام، فقال رحمه الله: (وقد ذهب شيخنا المفيد في كتاب الإرشاد إلى أنّ المقتول بالطف هو عليّ الأصغر، وهو ابن الثقفية، وأنّ عليّ الأكبر هو زين العابدين عليه السلام أمّه أمّ ولد، وهي شاه زنان بنت كسرى يزدجرد.

قال محمّد بن إدريس: والأولى الرجوع إلى أهل هذه الصناعة، وهم النسابون، وأصحاب السير والأخبار والتواريخ، مثل الزبير بن بكار في كتاب (أنساب قريش)، وأبي الفرج الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين)، والبلاذري، والمزني صاحب كتاب (اللباب في أخبار الخلفاء)، والعمري النسابة حقّق ذلك في كتاب (المجدي)، فإنّه قال: وزعم من لا بصيرة له أنّ عليًّا الأصغر هو المقتول بالطف، وهذا خطأ ووهم، وإلى هذا ذهب صاحب كتاب (الزواجر والمواعظ)، وابن قتيبة في (المعارف)، وابن جرير الطبري المحقق لهذا الشأن، وابن أبي الأزهر في (تاريخه)، وأبو حنيفة الدينوري في (الأخبار الطوال)، وصاحب كتاب الفاخر، مصنّف من أصحابنا الإمامية، ذكره شيخنا أبو جعفر في (فهرست المصنفين)، وأبو عليّ بن همّام في كتاب (الأنوار في تواريخ أهل البيت ومواليدهم)، وهو من جملة أصحابنا المصنّفين المحققين، وهؤلاء جميعًا أطبقوا على هذا القول وهم أبصر بهذا النوع)[٢٨].

المحور الثالث: رجوعه الى العرف

الْعُرْفُ هو المعروفُ المستحسنُ من الأفعال أي: الذي لا ينكره

الناس عند صدوره من فاعله قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢٩]، ومبنى الكثير من علمائنا الرجوع إلى العُرفِ فيما لم يرد فيه بيانٌ وإيضاحٌ من الشارع، فعليه التعويل بعد الشرع الحنيف، قال المحقق الكركي قدس سره: (العرف هو المرجع فيما ليس للشارع فيه حقيقة)[٣٠] وقال الشهيد الثاني رضي الله عنه: (العرف هو المحكَّم في أمثال ما لم يرد له تقدير شرعيّ)[٣١]. ومن هنا أرجع القرآن الكريم المسلمين في تحديد بعض الأمور إلى العُرفِ والعادة والمتعارف والمعروف، وكلها ذات مؤدى واحد، كتحديد مقدار نفقة الزوجة المرضع قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾[٣٢].

وكذا تحديد نفقة المطلقة في عدتها، قال تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣٣].

وكذلك في مسألة معاشرة الزوجة قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣٤].

فالشيخ ابن إدريس رضي الله عنه اقتفى أثرَ الشريعة في الرجوع الى العرف؛ لتحديد جملة من المفاهيم والأحكام الشرعية التي تركتها الشريعةُ الغراءُ دونَ تحديد، بل طرحتْ مفهومها العام وجعلت تحديدها حسب العرف المختلف بحسب الزمان والمكان، وهذه مرونة منها؛ لتكون فيها قابلية مواكبة المستجد، والصلاحية لكل الأزمنة، ولكل قوم بحسبهم مع حفاظها على ثوابتها وأُسسها، وهذا من ثوابتها أعني ترك تحديد بعض المفاهيم عن طريق العرف السائد، يقول الشيخ ابن إدريس رضي الله عنه بهذا الخصوص عند حديثه عن مقدار متعة المطلقة غير المدخول

بهـا ما نصه: (فالمرجـع في ذلك إلى العرف؛ لأنّ الخطـاب إذا أطلق رجع في تقييده إلى عرف الشرع إن وجد، وإلَّا رَجع إلى عـرف العادة إن وجد، وإلا رجـع إلى عرف اللغـة، فالمقدَّم عرف الشرع، وهذا الحكم بخلاف مهر المثل؛ لأنَّ المعتبرَ في ذلك بالنساء دون الرجـال)[٣٥] وعرف الشـرع هو القرآن، كما ذهب إليه الشـيخ ابن إدريس أعلى الله مقامه[٣٦].

ومن هنا أيد الشـيخ ابن إدريس رضـوان الله عليـه رجـوع الشـيخ الطوسـيّ إلى العُـرْفِ في جملة من الموارد نذكر منها:

١ ـ مفهوم الإحياء في الشريعة

أعني إحيـاء الأرض الموات فقد نقل الشيخ ابن إدريس رحمه الله قول الشيخ الطوسي قدس سره في هذا المعنى وأيده وعدَّه هـو الحق اليقين فقـد كان كلام الشـيخ الطوسـي في المقام ما يلي: (لم يرد الشرع ببيان ما يكون إحياء دون مـا لا يكون، غيـر أنّه إذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «من أحيى أرضًا ميتةً فهي له»، ولم يوجد في اللغة معنى ذلك، فالمرجع فيه إلى العرف والعادة، فما عرفه الناس إحياء فـي العادة كان إحياء، وملك به الموات)[٣٧].

٢ ـ معنى افتراق البيعين، والإقباض في البيع، وموجب قطع يد السارق

حدد الشـيخ الطوسي قدس سره معنى مفاهيـم أخرى كمفهـوم الافتراق بالنسـبة للبيعين، فقـال قدس سره (كما أنّه عليه السلام قال: «البيّعـان بالخيار ما لم يفترقـا»، وإنّـه نهى عن بيـع ما لم يقبـض «وأن القطع يجـب في قيمة المجـنّ» رجـع فـي جميع ذلـك إلى العادة)[٣٨].

فالشـارع بناء على قول الشـيخ الطوسـي لم يبـين ويحـدد مفهوم الافتراق بالنسـبة إلى البيعين، ولم يذكر حدَّهُ، ولـم يبينْ حدَّ القبض وكيفيتـه، ولا قيمَـةَ المجـن وهو الترس، ولا مقداره الذي لأجله تقطع

يد السارق، بل ترك تحديد ذلك الى العرف الغالب والعادة السائدة.

وأَيَّدَ الشيخ ابن إدريس قدس سره ما ذهب إليه الشيخ الطوسي قدس سره؛ إذ قال في ذلك بعد نقله لكلام الشيخ: (ونِعْمَ ما قال وهو الحقّ اليقين، فهذا الذي يقتضيه أصل المذهب، ولا يُلتفتُ إلى قول المخالفين، فإنَّ لهم في ذلك تفريعاتٍ وتقسيماتٍ، فلا يظن ظان إذا وقف عليها أن يعتقدها قول أصحابنا ولا ممّا ورد به خبر، أو قال مصنف من أصحابنا، وإنّما أورده شيخنا أبو جعفر رحمه الله، بعد أن حقّق ما يقتضيه مذهبنا)[٣٩].

وهناك روايتان في الأقل تبينان حد الافتراق المنهي لمجلس البيع مرويتان عن الإمام الباقر عليه السلام يرويهما محمد بن مسلم[٤٠]، الأولى منهما حسنة[٤١] رواها ابن أبي عمير، عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «بايعتُ رجلًا فلما بايعته قمت فمشيت خُطًا ثم رجعت إلى مجلسي ليجب البيع حين افترقنا».[٤٢]

وكذلك الرواية الثانية وهي صحيحة[٤٣] قال محمد بن مسلم: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إني ابتعت أَرْضاً، فلما استوجبتها قمتُ فمشيت خُطًا ثم رجعت فأردت أنْ يجب البيع»[٤٤].

نعم! هاتان الروايتان أخبار آحاد، والشيخ ابن إدريس قدس سره لا يعتد بأخبار الآحاد ولا يراها توجب علمًا، بلْ ادَّعى إجماع الطائفة على ذلك كما هو مشهور مبناه الذي أكدهُ غير مرة، وفي كلّ فرصة دعت الحاجة[٤٥] فيها الى عدم اعتماد تلك الأخبار.

المحور الرابع: رجوعه إلى المتكلمين

من ذلك ما نجده في كتاب أجوبة مسائل ورسائل في جواب مسألة وردت إليه حول تأخر سماع الصوت عن رؤيته فقال السائل:

(مسألة: ما تقول في حديث الصوت؟ فإنّا نجده إذا كنّا على شطٍّ وكان من جانبه الآخر من يدُقّ وتدًا، أو قصّار فنرى أنّه بعد وقع المدقّة بأوقات يدرك الصوت وليس هو كالصدى وعندهم أنّه يقدم في الوقت الثاني، وإنَّما يدرك بحاسَّة السَّمع في محلِّهِ)[٤٦].

وفي معرض الجواب قالرحمه الله: (الجواب وباللّه التوفيق: اعلم أصلحك اللّه أنّه يتموّج الصوت في الهواء كما إذا رمى بحجر في الماء يكون له موج ومدد، فما سمع فهو تصادم الصوت بالهواء وتموّجه، كذا ذكره المتكلّمون المحقّقون وهو عين الصواب)[٤٧]، وما ذكره اليوم يشكل الأساس في تفسير انتقال الصوت عبر الهواء.

المحور الخامس: رجوعه إلى أهل الحساب

وجدت ذلك منه في خصوص تعيين يوم النيروز أو النوروز وهو اليوم الأول من السنة الفارسية، وقد ورد استحباب صلاة أربع ركعات في هذا اليوم نقله الشيخ الطوسيقدس سره، ونقلهُ الشيخُ ابن إدريسقدس سره عنه، مُعلقًا أنَّ الشيخَ الطوسيَّقدس سره لم يذكر أي يوم هو هذا اليوم فحدده هو اعتمادًا على بعض علماء الهيئة والحساب باليوم العاشر من شهر أيار إذ قالقدس سره:

(وقال شيخنا أبو جعفر في مختصر المصباح: ويستحب صلاة أربع ركعات، وشرح كيفيتها في يوم النيروز ـ نوروز الفرس ـ ولم يذكر أيّ يوم هو من الأيَّام، ولا عيَّنَهُ بشهر من الشهور الرُّوميَّة ولا العربيَّة، والذي قد حقَّقهُ بعضُ مُحصِّلي أهل الحساب وعلماء الهيئة، وأهل هذه الصنعة في كتاب له أنّ يوم النيروز يوم العاشر من أيار، وشهر أيار أحد وثلاثون يومًا، فإذا مضى منه تسعة أيّام فهو يوم النّيروز، يقال: نيروز ونوروز لغتان)[٤٨]

وقال الشيخ ابن فهد الحليرضي الله عنه

عن يوم النيروز: (يوم النيروز يوم جليل القدر، وتعيينه من السنة غامض، مع أنه معرفته أمر مهم من حيث تعلق به عبادة مطلوبة للشارع، والامتثال موقوف على معرفته، ولم يتعرض لتفسيره أحد من علمائنا، سوى ما قاله الفاضل المنقب محمد بن إدريس رضي الله عنه)[٤٩].

ثم نقل نظر الشيخ ابن إدريس قدس سره في المقام المذكور آنفًا، ونقل بعده قول الشهيد الأول في المقام في كتاب (ذكرى الشيعة)[٥٠] بقوله (قال الشهيد: وفُسر بأول سنة الفرس، أو حلول الشمس برج الحمل، أو عاشر أيار والثالث إشارة إلى قول ابن إدريس، والأول إشارة إلى ما هو مشهور عند فقهاء العجم في بلادهم، فإنهم يجعلونه عند نزول الشمس الجدي، وهو قريبٌ ممَّا قاله صاحبُ كتاب الأنواء)[٥١].

والذي عليه مشهور الفلكيين أنَّ الشمس تنزل برج الحمل في يوم ٢١ آذار (مارس) وهو الذي يصادف اليوم الأول من رأس السنة الفارسية كما وجدت ذلك في صفحة ويكبيديا الموسوعة الحرة على شبكة الاتصالات، إذْ وَرَدَ هناكَ ما يأتي: (برج الحمل هو أول برج من الأبراج الاثني عشر من دائرة البروج أي قوس من دائرة مسار الشمس. برج بدأ من استواء السماوي. تمر الشمس من برج الحمل من (٢١) مارس إلى (٢٠) أبريل تكون الشمس في أول هذا البرج عند اعتدال الشمس الربيعي)، وهذا ما أكده الشيخ ابن فهد الحلي قدس سره إذ قال: (والأقرب من هذه التفاسير: أنه يوم نزول الشمس برج الحمل)[٥٢]

المحور السادس: تعويله على آثار من سبق

يتجلى ذلك في بيانه لمعنى الدرهم البغليّ وأصلُ تسميته، فقال في ذلك قدس سره: (وهو منسوب إلى مدينة قديمة يقال لها بغل، قريبة من بابل،

بينها وبينها قريب من فرسخ، متصلة ببلدة الجامعين، تجد فيها الحفرة والغسَّالون دراهم واسعة، شاهدت درهمًا من تلك الدراهم، وهذا الدرهم أوسع من الدينار المضروب بمدينة السلام المعتاد، تقرب سعته من سعة أخمص الراحة)[٥٣].

الخاتمة

في ختام البحث نرى أن الشيخ ابن إدريس الحلي (رضوان الله عليه) قد نهج منهجًا حضاريًا في رجوعه الى ذوي التخصص طلبًا للحق والحقيقة، لا يمنعه مانع في ذلك من اختلاف في مذهب أو عقيدة، وقد ثبتنا رجوعه إلى أهل الاختصاص في جملة من الموارد هي:

أوَّلًا: رجوعه إلى أهل اللغة من حيث معاني مفرداتها وأساليبها.

ثانيًا: رجوعه الى العرف في تحديد بعض المفاهيم، وقد قسم العرف الى عرف الشرع وعرف اللغة وعرف العادة.

ثالثًا: رجوعه الى أهل التاريخ في تحديد بعض المعلومات التاريخية.

رابعًا: رجوعه إلى علماء الكلام لبيان بعض المعاني والمفاهيم العلمية المتعلقة بالمقام.

خامسًا: رجوعه إلى أهل الحساب في تحديد يوم النيروز؛ إذ فتح بابًا للبحث في هذه المسألة المهمة التي يُشكلُ بها على أهل التشيع.

وأخيرًا فإني أرجو الله أنْ أكونَ مُوفقًا في عرض وتحليل بعض ما أسلفت في طيات هذا البحث الذي لا يخلو من الزلل والخلل والخطل كما هو شأن بني البشر، ولله الحمد أوَّلًا وآخرًا، إنَّهُ حميد مجيد.

الهوامش:

(١) سورة النحل آية ٤٣.

(٢) موسوعة ابن إدريس ج٢، ص٤٩٢.

(٣) هو الإمام الثبت، العالم أبو عبد الله العبدي الكوفي، حدث عن أنس بن مالك، وعن عطاء بن أبي رباح ونافع، وطلحة بن مصرف، وعون بن أبي جحيفة وغيرهم، قال أحمد بن حنبل: ثقة مأمون. وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان ثقة، مفوها يعد من رجالات العرب، يُنظر: سير أعلام النبلاء ج٦ ص١٥٨

(٤) موسوعة ابن إدريس ج٣ ص٢٢٠

(٥) هو سليمان بن معبد بن كوسجان بجيم بعد المهملة السنجي بكسر المهملة والجيم بينهما نون ساكنة أبو داود النحوي المروزي الرحال، والسنجي نسبة الى سنج بكسر السين المهملة، وسكون النون، وفي آخرها جيم، وهي قرية كبيرة من قرى مرو. خلاصة تهذيب تهذيب الكمال ص ١٥٤.

(٦) هو الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، ولد سنة بضع وعشرين ومائة وتوفي و مات الأصمعي سنة خمس عشرة ومائتين. سير أعلام النبلاء١٠/ (١٧٥ – ١٨٥)

(٧) موسوعة ابن إدريس ج٣ ص٢٢٠

(٨) هو صاحب التصانيف ولد سنة ثمان وخمسمائة، وسمع من أبي الغنائم محمد بن محمد بن المهتدي بالله. وأبي العز بن كادش، وطلب الحديث، وقرأ كثيراً، حدَّثَ عنه: أبو الفتوح بن الحصري وغيره وكان عجباً في اللغة، ثبتاً في النقل، قال ابن النجار: لم يكن له عيب سوى تقنيطه على نفسه، وله في ذلك حكايات، وخلف مالاً طائلاً، وكان مليح الخط، أنيق الضبط، سافر في التجارة، ثم تصدر للإفادة، وأقرأ كتب الأدب، وله معرفة قوية بالنحو، وكان يأخذ بمصر النحو عن ابن بري، وكان ابن بري يستفيد منه في اللغة، وكان يحفظ من أشعار العرب ما لا يوصف، وهو خال المحدث أحمد بن طارق الكركي، مات في ثالث المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة. سير أعلام النبلاءج٢٠/ ص٥٧٨

(٩) كتاب الكافي ج٨ ص١٦٧.

(١٠) موسوعة ابن ادريس الحلي ج١ ص٣١٢

(١١) موسوعة ابن ادريس ج٢ ص٤٦١

(١٢) في المقنع قال: (فإنه يورث الحبن، وهو الماء الأصفر)

(١٣) فقه الرضا: ص٣٩٥.

(١٤) موسوعة ابن إدريس ج١ ص٥٢٨.

(١٥) المصدر نفسه ص ٤٥٦.

(١٦) المصدر نفسه ص٤٧٧.

(١٧) المصدر نفسه ص٤٧٨.

(١٨) المصدر نفسه ج١ ص٤٨٦

(١٩) شبكة المعلومات الالكترونية

٢٠) هو أبو محمد التوزي البصري، مولى قريش. من كبار أئمة العربية أخذ عن: الأصمعي، وأبي عبيدة، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عمر الجرمي، ورأس في الأدب، وصنف كتب كثيرة منها: كتاب الأمثال، وكتاب الأضداد، وكتاب الخيل، وكتاب النوادر، وكتاب فعلت وأفعلت، قال المبرد: ما رأيت أعلم بالشعر منه كان أعلم من المازني والرياشي.

تاريخ الإسلام للذهبي ج١٩ ص١٨٧

(٢١) موسوعة ابن إدريس ج٣ ص٤٤٥.

(٢٢) الكافي ج٥ ص٣٣٣ ونص الحديث هو: (قال أبو جعفر): أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله يستأمره في النكاح، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «انكح وعليك بذات الدين تربت يداك».

(٢٣) موسوعة ابن ادريس ج٤ ص٢٧١

(٢٤) وهو أبو عبيد القاسم الهروي الأزدي (١٥٧ – ٢٢٤ هـ = ٧٧٤ – ٨٣٨ م القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي، بالولاء، الخراساني البغدادي، أبو عبيد: من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. من أهل هراة. ولد وتعلم بها، وكان مؤدبا، ورحل إلى بغداد فولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، ورحل إلى مصر سنة ٢١٣ وإلى بغداد، فسمع الناس من كتبه. وحج، فتوفي بمكة. وكان منقطعا للأمير عبد الله بن طاهر، كلما ألف كتابا أهداه إليه، وأجرى له عشرة آلاف درهم. من كتبه «الغريب المصنف – ط» مجلدان، في غريب الحديث، ألفه في نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف في هذا الفن.) الأعلام: ج٥ ص١٧٧

(٢٥) سورة البلد، آية١٦

(٢٦) غريب الحديث ج٢ ص ٩٦.

(٢٧) موسوعة ابن ادريس ج٢ ص١٩٥.

(٢٨) المصدر نفسه ج٢ ص٤٩٢.

(٢٩) سورة الأعراف آية ١٩٩.

(٣٠) جامع المقاصد ج٦ ص٤٠١.

(٣١) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ج١ ص٢٧٩.

(٣٢) سورة الطلاق آية٦.

(٣٣) سورة البقرة آية ٢٤١.

(٣٤) سورة النساء آية ١٩

(٣٥) موسوعة السرائر ج٤ ص٣٠٦

(٣٦) انظر المصدر نفسه ج٥ ص٧٧

(٣٧) كتاب المبسوط ج ٣ ص٢٧١

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) موسوعة ابن إدريس ج٢ ص١٩٩

(٤٠) وهو من خيرة أصحاب الامامين الصادقين عليهما السلام ورد فيه توثيق من أئمة الهدى عليهم السلام وفي أكثر من مورد من ذلك ما نقله الشيخ السبحاني في كتابه تذكرة الاعيان ص١٢ (قال الصادق وهو يصف لفيفًا من أصحاب أبيه: « هم مستودع سرّي، أصحاب أبي حقّا إذا أراد الله بأهل الأرض سوءًا صرف بهم عنهم السوءَ، هم نجوم شيعتي أحياء وأمواتًا، يحيون ذكر أبي عليه السلام، بهم يكشف الله كلّ بدعة، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين، وتأوّل الغالين» ثم بكى فقلت: مَنْ هم؟ فقال: «مَنْ عليهم صلوات الله ورحمته أحياءً وأمواتًا: بريد العجلي، وزرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم».

(٤١) كما أكد ذلك المحقق الأردبيلي في كتابه مجمع الفائدة ج٨ ص٣٨٤

(٤٢) الكافي ج٥ ص١٧١

(٤٣) صحح الرواية المحقق الأردبيلي، في كتابه مجمع الفائدة ج٨ ص٣٨٤

(٤٤) وسائل الشيعة ج١٨ ص٨

(٤٥) ينظر موسوعة الشيخ ابن إدريس، ج١ ص١١٥

(٤٦) أجوبة مسائل ورسائل في مختلف فنون المعرفة، ص١٤٠

(٤٧) المصدر نفسه

(٤٨) موسوعة ابن إدريس الحلي / السرائر ج١ ص٤٥٧

(٤٩) المهذب البارع ص١٩٢

(٥٠) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة ج١ ص١٩٩.

(٥١) المهذب البارع ص١٩٢.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) المصدر نفسه.

المصادر

* القرآن الكريم
* جامع المقاصد للمحقق الكركي، (ت٩٤٠هـ) تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المشرفة، ١٤١٠هـ.
* خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي الأنصاري اليمني (ت القرن الحادي عشر)، قدم له واعتنى بنشره عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، مكتب المطبوعات الإسلامية/ دار البشائر الإسلامية، ١٤١١هـ.
* ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: الشهيد الأوّل محمد بن جمال الدين مكي العاملي، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ١٤١٩هـ.
* الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: الشهيد الثاني (ت ٩٦٥هـ)، إشراف السيد محمد كلانتر، جامعة النجف الدينية.
* سير أعلام النبلاء للذهبي (ت ٧٤٨هـ)، إشراف وتخريج شعيب الأرنؤوط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ ـ ١٩٩٣ م.
* غريب الحديث لابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٤هـ.
* فقه الرضا لعلي ابن بابويه القمي، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المشرفة، مشهد المقدسة، ١٤٠٦هـ.
* الكافي للشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مطبعة: حيدري، دار الكتب الإسلامية ـ طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٢ ش.
* مجمع الفائدة والبرهان: للمقدس الاردبيلي (ت ٩٩٣هـ)، تحقيق الحاج آغا مجتبى العراقي، الشيخ علي پناه الإشتهاردي، والحاج آغا وحسين اليزدي الأصفهاني، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١١هـ.
* المقنع للشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق لجنة التحقيق التابعة لمؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، مطبعة اعتماد، مؤسسة الإمام الهادي)، ١٤١٥هـ.
* المهذب البارع لابن فهد الحلي (ت ٨٤١هـ)، تحقيق الشيخ مجتبى العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٧هـ.
* موسوعة ابن إدريس الحلي (ت ٥٩٨هـ)، تحقيق وتقديم السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، مكتبة الروضة الحيدرية، العتبة العلوية المقدسة، النجف الاشرف، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م.
* ١٠ ـ وسائل الشيعة، للحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر، قُم، ١٤١٤هـ.